دخول الإسلام إلى الهند

مسعود عالم الندوي*

انتشر الإسلام في الهند بوسائل عديدة وطرق شتى، ومن أهمها التجار العرب الذين كانوا يرتادون شواطئ الهند الغربية منذ أقدم العصور، وكان هؤلاء التجار يبحرون من سيراف والأبلة (موانئ قديمة في الخليج الفارسي) ويمرون بشواطئ الهند الغربية وجزيرة سَرَنْدِيب (سريلانكا) إلى أن يصلوا شواطئ الهند الشرقية ومن هناك كانوا يبحرون إلى الصين.

ولما استضاءت بلاد العرب بنور الإسلام وعبق أريج فضله في سهولها وجبالها جاء هؤلاء التجار العرب، الذين كانوا يرتادون سواحل الهند، بقبس من ذلك النور الوهاج وأضاءوا به أرجاء الهند الساحلية. وكان ذلك أول عهد الهند بالإسلام، وفي أوائل عصر الخلفاء الراشدين.

والطريق الثاني الذي دخل منه الإسلام، هي بلاد السند الواقعة على شاطئ الهند الغربي الشمالي، دخلها الإسلام واستنارت بنوره واستضاءت بضوئه، حين دخلها محمد بن القاسم الثقفي فاتحا[1]، وذلك سنة ٩٣هـ/ ٧١١م. ومما يجدر بالمقام ذكره أن محمد بن القاسم فتح السند وهو ابن سبعة عشر عاما، وفيه قال الشاعر:

ساس البلاد لسبع عشر حجة
ولِدَا تُه عن ذاك في أشغال

ولولا مؤامرة مناوئيه في دمشق ورجوعه إلى عاصمة الإسلام بطلب من الخليفة، لَفَتَح محمد بن القاسم السند كلها، ولكانت الأرض اليوم غير الأرض.

---

* من كبار علماء باكستان ممن كتبوا بالعربية في موضوعات شتى، أسس دار العروبة للدعوة الإسلامية كجناح لأعمال الدعوة والإرشاد في الجماعة الإسلامية بباكستان.

١- بدأت الحملات الإسلامية على الشواطئ الشمالية الغربية في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلا أنهم لم يتوغلوا في داخل البلاد وقتئذ. واستتب لهم الأمر بيد القائد الشاب محمد بن القاسم.

والطريق الثالث الذي دخل منه الإسلام الهند، هي الحدود الشمالية الغربية وممرها الجبلي الشهير، المعروف بوعورة مسلكه وكثرة عقباته. وأول من دخل الهند فاتحا من هذه الطريق الجبلية، محمود الغَزْنَوِي (ت: ٤٢٢هـ/ ١٠٣٠م).

ثم تتابعت حملات الملوك والقادة ورجال البأس والنجدة من الترك والأفغان والمغول. فأصبحت بلاد الهند كلها خاضعة لحكم الملوك المسلمين، وأصبح لهم فيها الأمر والنهي. وبقي الأمر على ذلك زهاء سبعة قرون إلى أن دخلها الإنجليز.

ولكن ملوك المسلمين ـ على ما كانوا عليه من شدة البأس وأبهة الملك والسلطان ـ لم يُكرِهوا الأهالي وسكان البلاد على الدخول في دين الله وقبول دعوة الإسلام، وإنما أسلم من أسلم منهم مقتنعا بصدق الدعوة، مؤمنا بالله واليوم الآخر. وانجذب إلى الإسلام، دين العدل والإنصاف، عدد غير قليل من المنبوذين المضطهدين الذين وجدوا في الإسلام نجاة لأنفسهم، وخلاصا من مصائبهم وفكاكا من أغلالهم التي كانوا يرسفون فيها منذ قرون وأحقاب طويلة.

الدعوة الإسلامية وتقلص ظلها

ومما يجب تسجيله في هذا المقام أن الملوك الذين دخلوا الهند في القرن الرابع الهجري وما بعده، لم يهتموا بدعوة الإسلام في قليل ولا كثير، وإنما كان جل همّهم هو توطيد الملك وإنفاق الأموال في الترف والبذخ ولذائذ العيش ومتع الحياة الدنيا الفانية. والحقيقة هي أنهم لو اعتنوا بدعوة الإسلام ونشر كلمة الحق معشار ما عنوا به من تشييد بنيان الملك وتوطيد دعائم العز الزائل لتغير الوضع ولانعدم الكفر من بلاد الهند قاطبة.

والذي نراه اليوم من اسم الإسلام في هذه البلاد وارتفاع كلمته في بعض أجزائها، فالفضل فيه يرجع إلى العلماء والمشائخ الذين هاجروا من أوطانهم في بلاد الإسلام ودخلوا الهند دعاة مرشدين وخالطوا أهلها وعاشروهم ولقنوهم مبادئ الدين الحق وعلموهم آداب الإسلام، فتأثر سكان البلاد بأخلاقهم الزكية وسجاياهم الطاهرة، واختاروا الإسلام دينا لهم عن طيب نفس وانشراح صدر.

ولكن أعمال بعض دعاة الحق والسلام من التجار والعلماء والمشائخ لا تبرئ ساحة الحكام المسلمين، من ملوك وأصحاب السلطان، من تبعة هذه الغفلة المنكرة، والتهاون الشنيع في أمر الدعوة.

وإن ننس، لا ننسى أن بلادنا قد حرمت أقدام الفاتحين من العرب ممن تشرفوا بصحبة النبي صلى الله عليه وسلم أو استفادوا من أصحابه الكرام رضي الله عنهم الذين ما دخلوا بلدا إلا وأثّروا فيه تأثيرا

وصبغوه بصبغتهم الإسلامية العربية وبدلوه تبديلا، والذين جاءوا منهم إلى بلاد السند وفتحوها، لم يمتد زمن ملكهم ولا هم توغلوا في داخل البلاد. بل ابتليت بلادنا برجال وجماعات من المغول والترك الذين دخلوها فاتحين ولم يكن لهم علم بروح الإسلام ولا بقوانينه الاجتماعية، وذلك أنهم أنفسهم كانوا حديثي عهد بالإسلام، فلم تخالط قلوبهم بشاشة الإيمان بعد. وذلك من أهم أسباب تقلص الدعوة الإسلامية في الهند وانتكاس رايتها وعدم سيرها على المنهاج القويم المعتدل، هذه نقطة.

والنقطة الثانية هي أن الذين أسلموا من المنبوذين والطبقات المضطهدة، لم يُعن بتربيتهم وتنشئتهم على آداب الإسلام وأخلاقه العالية، فبقيت الآلاف المؤلفة من أولئك متمسكة بعاداتها الوثنية وشعائرها المتوارثة، المناقضة لروح الدين الحنيف وتعاليمه النقية الطاهرة.

والنقطة الثالثة هي أن العلماء والمشائخ الذين وردوا الهند في عهود الملوك المسلمين ونشروا فيها العلم، كان معظمهم من علماء ما وراء النهر، الذين كان جل اعتمادهم على كتب المتأخرين من فقهاء الحنفية، فما كانوا يعنون بدراسة القرآن الكريم وكتب الحديث الشريف إلا قليلا.

ومما زاد الطين بلة أن هؤلاء كانوا جد مولعين بخرافات اليونان وعلومهم المنطقية والفلسفية التي أكل عليها الدهر وشرب، حتى أنه لم يبق في بلاد اليونان نفسها من يعرف اسمها ورسمها. فأصبح مسلمو الهند يتسكعون في ظلمات علوم اليونان، وكلما أفاقوا منها قليلا، انصرفوا إلى كتب في الفقه لا تسمن طالب العلم في علمه ولا تغني من جوع، وأكبوا على أسفار في الفروع والخلافيات التي لا تروي الغليل ولا تشفي العليل.

والنقطة الرابعة هي أن الحكومات المنتمية إلى الإسلام والتي قامت وازدهرت في الهند، كانت كلها ملكا شخصيا استبداديا، لا يستند إلى الشريعة الإسلامية ولا يتقيد بقوانينها وأحكامها إلا قليلا. فما كان من همّ أولئك الملوك إلا أن يروا سلطتهم مرتفعة الأعلام، شامخة الذرى، مسموعة الكلمة، عزيزة الجانب، ينقاد لها الأهالي وتخضع لها شعوب الهند المختلفة، سواء عليهم في ذلك أرتفعت راية الإسلام أم انتكست.

هذه هي الأسباب الهامة والعوامل الجوهرية التي تسببت في تقلص الدعوة الإسلامية في الهند، وأفضت إلى بقاء الجزء الأكبر من سكانها مستمسكا بعقائده الوثنية غارقا في لجج الشرك والأوهام الجاهلية. وكذلك كان لها تأثير قوي في بقاء الذين أسلموا منهم على عاداتهم وتقاليدهم وعدم اصطباغهم بصبغة الإسلام والآداب الإسلامية.

ومما زاد الطين بلة تأثر المشائخ والصوفية من المسلمين بتعاليم متصوفة البراهمة، فنشأ فيهم القائلون بنظرية "وحدة الوجود" و"الحلول" والمتبعون لمتصوفة الهنادك (الهندوس) في رهبانيتهم الباطلة

ورياضاتهم المخالفة لما جاء به الدين الحنيف من نظام معتدل للحياة يجمع بين حسنات الدنيا والآخرة.

وخلاصة القول أنه كان من جراء هذه وتلك أن عين الإسلام الصافية قد كدرت بأوساخ الجهل والبدع، ومرآته الوضيئة قد اتسخت بأدران التصوف الباطل والعادات الوثنية. وكثير من الأفكار والنظريات التي نشأت وظهرت في بلادنا باسم الإسلام وفلسفته لم تكن من الإسلام في شيء. ونظام الحكم الذي امتد سلطانه في طول البلاد وعرضها ما كان له أدنى صلة بالنظام العادل القويم الذي جاء به الإسلام وأرشد إليه النبي الكريم صلى الله عليه وسلم ومثّله الخلفاء الراشدون في عصورهم أحسن تمثيل.

عصر الضلال

قد عرفت مما تقدم، ما صارت إليه الدعوة الإسلامية في الهند من انحطاط وتقهقر وتنكب عن المنهج القويم، وذلك قبل القرن العاشر للهجرة، أي: قبل دخول آل تيمور (المغول) الهند وامتلاكهم لناصية الأمر فيها.

ولكن عصر أحفاد تيمور (المتوفى سنة ٨٠٧هـ/ ١٤٠٥م) كان أكثر شؤما وأعظم بلاء للإسلام وحملة لوائه في هذا القطر. فالملوك الذين عاشوا قبل القرن العاشر ما كانوا يحاربون الإسلام وما كانوا يضطهدون أهله، بل كان فيهم من سعى في نشر دعوة الدين وإعلاء كلمته من أمثال محمد تغلق (ت:٧٥٢هـ/ ١٣٥١م) وابن عمه فيروز تغلق (ت:٧٩٠هـ/ ١٣٨٨م).

أما ملوك المغول، من أحفاد تيمور، فقد ظهر بينهم من حارب الإسلام وناصبه العداء، واضطهد القائمين بدعوته، الساعين إلى رفع كلمته، وأرهقهم بأنواع من العذاب والأذى والتضييق.

والذي تولى كبر هذه المحاربة الشنيعة وهذا العداء الممقوت هو الإمبراطور أكبر الذي تبوأ كرسي الملك سنة ٩٦٤هـ/ ١٥٥٧م وحكم البلاد خمسين سنة كاملة إلى أن وافاه الأجل المحتوم سنة ١٠١٤هـ/ ١٦٠٥م. فأراد هذا الملك المغرور بنفسه أن يقضي على الإسلام أو أن يلغيه، حسب ما اصطلح عليه أنصاره وأشياعه، وأن يضع دينا جديدا ـ باسم "الدين الإلهي" ـ مقتبسا من شعائر الوثنية ورسومها، يتخللها شيء من تعاليم الإسلام وتوجيهاته. والذي حمله على اقتراف هذه الجريمة الشنعاء ورغبه في ركوب هذا المسلك الوعر هو حرصه على بقاء الملك والتحبب إلى أهالي البلاد من الهندوس، وزعمه الفاسد بأن هذا الصنيع يقربه إليهم ويرفع مقامه في أعينهم ويحله محل الصدراة من قلوبهم. فاختار لذلك طرقا عديدة ومناهج متشعبة، منها تزوجه من بنات أمراء الهندوس مع بقائهن على عقائدهن وتمسكهن بديانتهن وأدائهن لشعائرهن الوثنية في القصر الملكي، ومنها تخلّقه بأخلاق الوثنيين وعاداتهم وتقليدهم في ملابسهم وأوضاع معيشتهم.

وقد بلغ منه الكره والعداء للإسلام أنه كان يسمي الخدم والفراشين لديه بأسماء النبي صلى الله عليه وسلم (أحمد ومحمد)، تحقيرا لشأن الرسالة وحطا من كرامتها، وهيهات أن ينال بغيته. وكذلك استبدل بالتقويم الهجري الإسلامي تقويما جديدا سماه "التقويم الإلهي"، يبتدئ بسنة جلوسه على كرسي الملك.

ومن بدعه أنه أحل الخمر والقمار وغيرهما من الخبائث والمنكرات، وأعانه على ذلك علماء السوء في عصره من عبيد الدرهم والدينار، فزينوا له ما سوّله له عقله المعتوه، وجعلوه يستيقن من نفسه العصمة، وقدموا إليه عريضة ـ تسمى "محضرا" باللغة الفارسية ـ تثبت للملك المغرور العصمة وتخوله الحق في أن يشرع ما يشاء ويضع من الأحكام ما يريد، إلى غير ذلك من الأباطيل التي تضيق هذه العجالة عن سردها.

وجملة القول: إن هذه البدع والمنكرات ما كانت إلا مقدمة لِمَا كان أكبر قد عقد العزم عليه من وضع دين جديد ينسخ به دين الله الخالد، ظنا منه ومن خواص أشياعه أن هذا الدين (الإسلام) الذي جاء به محمد العربي ـ أو "البدوي" حسب تعبير أولئك الزنادقة، قاتلهم الله وجزاهم عن أعمالهم بما يستحقونه ـ قد مضى عليه "ألف سنة"، وقد بلي ثوبه وخلقت ديباجته، والعصر "الجديد" يومئذ في حاجة إلى دين جديد يوافق ميول أهل العصر وأهواءهم ونزعاتهم. فأعلنوا دينهم الجديد وسموه "الدين الإلهي". وكان شعارهم في ذلك "الله أكبر" يريدون به أن هذا الملك الضليل (أكبر) هو الله!

فكان من أثر كل ذلك أن أصبح عصر هذا الملك عصر بلاء ومحن للإسلام والمسلمين في هذه الديار، اتسع فيه الخرق على الراقع وجاوز السيل الزبى، فاضطهد من اضطهد من عباد الله، وحبس من حبس، واعتقل من اعتقل، إلا أنه مما يؤلم القلب ويدمع العين أنه قد زلت في هذه الفتنة العمياء أقدام الخاصة والعامة، ولم ينج من شرها حتى من كان يعد من كبار العلماء والفقهاء في ذلك العصر، فلم يثبت في تلك المحنة الكبرى إلا عدد قليل منهم. أما جمهور العلماء والعدد الغالب منهم، فقد استسلموا لأمر الملك وجبروت السلطان القاهر ولم يتحرجوا من التوقيع على "المحضر" الذي ادعى العصمة للملك وخوله الحق في وضع الشريعة. ومن أجل ذلك قال الإمام المجاهد أحمد بن عبدالله السرهندي (المتوفى سنة ١٠٣٤هـ/ ١٦٢٤م) الذي سوف نذكر من جهاده المبرور ومواقفه المجيدة في مقاومة هذه الفتنة العمياء ما تقر به عينك ويثلج له فؤادك، إن شاء الله، قال رحمه الله ونضر وجهه يوم القيامة:

> "ومما لا مجال فيه للشك أن كل ما وقع من المداهنة والتخاذل في الأحكام الشرعية في هذا الزمان، وما ظهر من الفساد والوهن في نشر الدعوة الإلهية وإبقاء مآثرها في هذا العصر، إنما يرجع سببه إلى علماء السوء الذين هم لصوص الدين وشر من تحت أديم السماء، أولئك

حزب الشيطان، ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون".

هذا غيض من فيض تلك الفتنة العمياء التي مني بها الإسلام والمسلمون في هذه البلاد في القرن العاشر وأوائل القرن الحادي عشر للهجرة، والتي كادت أن تأتي على بنيان الإسلام من قواعده في هذه البلاد، لولا أن تداركته رحمة من الرب العلي العظيم، فقد جرت سنة الله في خلقه أن اشتداد الظلام وازدياد الحلكة يؤذن دائما بانبثاق الفجر وانبلاج الصبح المشرق، وما زالت ظلم الحوادث مطلعا لأنوار الحق وبزوغ شمس الهداية:

إذا الظلام عتا، تبلـج فجـــره

ظلم الحوادث مطلع الأنــوار

المجدد السرهندي (ت: ١٠٣٤هـ/ ١٦٢٤م)

لما آل الأمر إلى ما تقدم بيانه من غربة الإسلام في هذه البلاد، والتضييق على المسلمين واضطهادهم، وأصبح مثل القابض على الدين من بينهم كمثل القابض على الجمر، وقف الرجل الذي قيض الله له أن يقف في وجه هذا الطاغية وأنصاره الضالين المضلين، وأن يرفع لواء أفضل الجهاد، ويصدع بكلمة الحق، ويكبح جماح غوايتهم، ويقضي على بدعهم وشرورهم قضاء مبرما... هذا الرجل هو الإمام المجاهد العالم الزاهد الشيخ أحمد بن عبد الأحد الفاروقي السرهندي[٢] الملقب بـ: "مجدد الألف الثاني" للهجرة عن جدارة واستحقاق.

وقد شمر هذا العالم عن ساعده لمقاومة الفتنة الأكبرية وردّ مكائد أعداء الإسلام، ولتهذيب نفوس أهل الغواية، وجاهد في ذلك جهادا موفقا مبرورا حتى أنجحه الله في مساعيه، وأعاد للإسلام في هذه الديار أيامه الغر السالفة، فارتفعت كلمته من جديد وأصبح المسلمون في أمن على دينهم وعقائدهم.

وكان الشيخ أحمد السرهندي رحمه الله قد نشأ في الربع الأخير من القرن العاشر الهجري، حين شرع الملك أكبر في نشر تعاليمه الخبيثة وآرائه الباطلة والدعاية لها. فانتبه للأمر، وجعل يراقب الأحوال عن كثب، وأخذ يعد عدته لمقاومة الفتنة ومحاربتها. فقام بدعوة واسعة بين جميع طبقات الشعب وبث أتباعه ومريديه في طول البلاد وعرضها، وكتب إلى أمراء الجيش ورؤساء الدوائر الحكومية ممن آنس فيهم رشدا، ينبّههم من نوم الغفلة، ويلفت أنظارهم إلى ما أتت به الفتنة الأكبرية من مصيبة وبلاء للدين الحق وما جرّته

٢- نسبة إلى بلدة سرهند الواقعة بولاية البنجاب الهندية وبها قبره يزار. والطريقة المنسوبة إلى الشيخ هي الطريقة "المجددية"، وهي ـ وإن كانت أبعد الطرق عن البدع والخرافات ـ إلا أنها قد تطرق إليها بعض الغلو من الذين نسبوا إلى الشيخ كرامات خارقة وعزوا إليه أقاويل وأعمالا لا يشك عقلاؤهم في براءته منها.

من وبال على المسلمين.

ومازال بالأمر يجدّ ويجتهد في نشر الدعوة ومحاربة البدع والمنكرات، إلى أن نجحت مساعيه وأثمرت شجرة جهاده وآتت أكلها، فاستبشر بذلك المسلمون استبشارا، وعاد للإسلام مجده ورواؤه في بلاد الهند، إلا أن نتائج هذه الدعوة لم تظهر للعيان إلا بعد وفاة أكبر، حين كانت الفتنة في شبابها في زمن ابنه الإمبراطور جهانكير (ت:١٠٣٧هـ/ ١٦٢٧م)، حيث المسلمون والدعاة إلى الإسلام يضطهدون، شأنهم في عصر الإمبراطور أكبر، حتى أن جهانكير أمر بحبس الشيخ السرهندي في قلعة غواليار وهي مدينة في قلب الهند.

ومن أعاجيب أمر الله في خلقه أن هذا الحبس انقلب نعمة عظيمة للدعوة الإسلامية في الهند، فإنه لم يمض على دخول الشيخ في القلعة (السجن) إلا فترة قليلة حتى تبدل الجو داخل القلعة، وصار الجناة من السارقين وقطاع الطريق يصلّون ويسجدون، وأصبحوا يأتمرون بأوامر الشيخ ويؤدون واجباتهم الإسلامية أداء لم يشاهد مثله من قبل من أمثالهم. فتنبه لذلك مدير السجن وكتب إلى الإمبراطور يخبره بأن المحبوس (الشيخ السرهندي) ليس من شأنه أن يسجن، وإنما هو ملك قلما ينجب الدهر مثله، فإن رأى الإمبراطور أطلقنا سراحه وأكرمناه بما يستحقه. فندم الملك[٣] على ما ظهر منه من الشدة في شأن الشيخ، وأمر بإحضاره إلى مقر المملكة. ولما بلغه خبر دنوه من العاصمة بعث ولي عهده الأمير خُرَّم ـ الذي اعتلى العرش بعد وفاة أبيه وتلقب بـ: "شاه جهان" ـ لاستقباله والترحيب بمقدمه.

ولما جاء الشيخ إلى العاصمة وحضر باب الملك سلم على الملك وعلى حاشيته وحيّاهم بتحية الإسلام ولم يسجد له، على عكس شأن الناس يومئذ، فتحمل الإمبراطور ذلك منه وتلقاه بالترحاب، وأصر عليه بالبقاء في البلاط الملكي، حتى يتسنى له أن ينتفع بنصائحه ويفيد الخير والفضل من مجالسه، فأقام الشيخ أياما في البلاط الملكي. وكان من نتائج مساعيه المشكورة ومواعظه البالغة أن رضي الإمبراطور بإلغاء كثير من البدع والمنكرات التي كان أبوه الطاغية الإمبراطور (أكبر) قد ابتدعها، فأصدر الأمر بالأمور الآتية:

١- تحريم السجود للملك.

٢- الإذن بذبح البقر، وكان الطاغية أكبر قد حرّم ذبحه، تودد إلى الوثنيين، عبّاد البقر.

٣- تعيين القضاة ورجال الحسبة في كل بلدة.

٣- قيل: إن الملك رأى في ما يراه النائم أن الرجل قد ظلم وأن رجلا صالحا يقول له ـ وهو عاض على يديه ـ: "ويحك! قد حبست رجلا لا ترى مثله في الصلاح والورع".

٤- إعادة بناء المساجد المهدمة.

٥- إبطال القوانين المعارضة للشريعة الإسلامية.

فحصلت بذلك نهضة جديدة للدين، واستبشر به المسلمون استبشارا عظيما، وزال عنهم ما أصابهم من الهم والغم نتيجة الاضطهاد في أمور الدين والتضييق عليهم في أداء واجبات الشرع.

وللسيد المجدد ـ طيّب الله ثراه وأفاض عليه من سجال رحمته ـ أعمال جليلة أخرى وجهود مشكورة زاهرة، لا يسع المقام ذكرها والإفاضة في بيانها، إلا أننا نرى من واجب المؤرخ وأمانة الراوي أن نشير إلى ثلاث نواح مهمة سعى فيها المجدد سعيه، وبذل في سبيلها الجهد المستطاع:

١- أول ما اهتم به السيد المجدد وبذل جهوده فيه هو إصلاح شأن الحكومة ورجالها والقائمين بأمرها والمتصرفين في شؤونها، لأنهم هم العمدة، فلو صلحوا صلحت البلاد كلها، ولو فسدوا فسد المجتمع برمته. وقد نجح في ذلك نجاحا ملموسا.

٢- الثاني هو أنه رأى بثاقب فكره وواسع علمه أن كل ما تتابع من النوائب على المسلمين في عصره، وجميع ما أصيبوا به من ذل في الدين وهوان شعائره الكريمة، إنما تعود تبعته في الغالب إلى علماء السوء الذين تهافتوا على حطام الدنيا الدنيئة، واشتروا بآيات الله وأوامر رسوله ثمنا قليلا، فشوهوا سمعة الدين وكانوا مثل سوء لأمتهم وبني جلدتهم، حتى أصبح الناس يسيئون الظن بالدين نفسه. فوقف السيد المجدد موقفا كريما وجاهد جهادا مشكورا للكشف عن عورات علماء السوء وجرد قلمه للرد على بدعهم وأباطيلهم التي اخترعوها وابتدعوها من تلقاء أنفسهم ونسبوها إلى الدين كذبا وزورا.

٣- والثالث هو أنه شاهد بأم عينيه أن الذين يتسمون بسمة الصوفية في عصره، قد تأثر أكثرهم بفلسفة البراهمة وجعلوا يقولون بأنواع من العقائد الباطلة والمزاعم الفلسفية الضالة المضلة كـ: وحدة الوجود والحلول والاتحاد وغيرها مما لا يمت إلى الدين بصلة. وكذلك رأى ـ وهو الذي نشأ وترعرع بينهم ودرج في عشّهم ـ أن معظم هؤلاء الصوفية قلما يهتمون بالشريعة ويتبعون أوامرها، بل جل اعتمادهم على أقاويل مشايخهم وما تسلسل إليهم من شيوخهم الأقدمين من الأخبار والأقاصيص التي ليست من الدين في شيء. فقام السيد المجدد قومته الجبارة في الرد على هؤلاء القوم وتفنيد أباطيلهم ودحض شبهاتهم ومزاعمهم.

ومن أهم ما رد عليهم وتشدد فيه، عقيدة وحدة الوجود. فقد بلغ الأمد أقصاه في إبطال هذه

العقيدة الواهية، ونقض أقاويل ابن عربي الطائي رئيس القائلين بالوحدة وإمامهم. ومكتوباته ورسائله مشحونة بالبحوث القيمة الدقيقة في هذا الشأن، ولا يمكن استيفاؤها في هذه العجالة، وقد استقصيناها ووفيناها حقها في موضع آخر[٤].

وجملة القول أن دعوة الإسلام في الهند كانت سائرة ببطء إلى أن ظهر الإمبراطور أكبر. فأراد أن يقضي عليها ويستبدل بالإسلام نحلة جديدة مبتدعة، فكان ما كان من البدع والمنكرات والتضييق على الإسلام واضطهاد المؤمنين بدعوته، المعتزين بمآثره. وظل الأمر على ذلك في عصر أكبر وشطرا من زمن ابنه جهانكير إلى أن نجحت دعوة الشيخ أحمد بن عبد الأحد السرهندي فعاد للإسلام مجده ورواؤه في بلاد الهند، وأصبح مسلموها في أمن على دينهم وأخلاقهم وأعراضهم.

بعد السيد المجدد

وممن كانت لهم يد في تأييد الدين، ونشر تعاليمه الصحيحة، وتعميم السنة النبوية، الشيخ عبدالحق الدهلوي[٥]، الذي كان معاصرا للسيد المجدد، وهو الذي أحيا علم الحديث في شمالي الهند وسعى سعيه إلى نشر معارفه وبث خيراته، فوضع مؤلفات عديدة في الحديث وما يتصل به من العلوم، وشرح **مشكاة المصابيح** بالعربية والفارسية.

والذي يدلنا عليه تاريخ القرن الحادي عشر الهجري، والذي تلاه، أنه كان لمساعي الشيخ عبدالحق وجهوده المشكورة أثر محمود في نشر السنة وتقريبها إلى أذهان الغافلين عنها. وكانت الأمة كلها في غفلة يومئذ عن كنوز السنة النبوية، إلا من رحم ربك.

هذا، وقد أشرنا إلى مساعي الشيخ عبدالحق في هذه العجالة بوجه خاص رغم أننا لم نذكر شيئًا من جهود العلماء الذين سبقوه، ورغم أن أعماله لم تتجاوز حدود التدوين والتأليف ولم تدخل دائرة الجهاد العملي على غرار السيد المجدد، وذلك لأن الذين تقدموه من العلماء، انحصرت جهودهم في تدريس كتب في المنطق والفلسفة اليونانية أو العكوف على أسفار في فروع الفقه الحنفي، مما لم ينفع الدعوة في قليل ولا كثير... بل إن اشتغالهم بعلوم اليونان البالية وانصراف همّهم عن دراسة الكتاب العزيز والسنة النبوية،

٤- **تاريخ الدعوة الإسلامية في الهند**، للمؤلف.

٥- ولد سنة ٩٥٨هـ/ ١٥٥١م في دهلى، عاصمة الهند، وأخذ عن والده، ثم ارتحل إلى الحرمين وصحب الشيخ عبدالوهاب المتقي الهندي (م: ١٠٠١هـ) الذي كان قد استوطن الحجاز، وقرأ عليه الكتب الستة، ثم عاد إلى الوطن واستقر به ومازال يخدم السنة النبوية وينشر العلم إلى أن استأثرت به رحمة الله سنة ١٠٥٢هـ/ ١٦٤٢م.

واكتفاءهم بكتب في فروع الفقه، كل ذلك قد أضر بالدعوة الإسلامية في الهند وحال دون اهتداء جمهور المسلمين لوجه الحق المبين واطلاعهم على مزايا الدين الحق.

أما الشيخ عبدالحق، فعلى العكس من هذا، كان جل اشتغاله بالسنة ونشر تعاليمها وتدريس متونها وتأليف شروحها، فهو أول رجل في شمالي الهند وقف نفسه لخدمة السنة النبوية وبث معارفها وتنشئة الناس على علمها والعمل بها، فله منة في أعناق المسلمين لا تنسى، ويد على الدعوة تذكر، وبلسان الثناء تؤثر. فإن ذيوع السنة النبوية والاشتغال بدراستها وتداول متونها وشروحها مما يقرب الناس إلى الدين الصحيح ويدنيهم من معينه الصافي.

الملك أورنغزيب (ت: ١١١٨هـ/ ١٧٠٦م)

وممن كانت لهم يد نافذة في تثبيت قواعد الدين في الهند وإعلاء كلمته وتطهيره من أدران الزيغ والإلحاد التي ألصقت بها في العهد الأكبري المشؤوم، الإمبراطور الصالح الزاهد أبو المظفر محي الدين عالمكير أورنغزيب الذي تولى الأمر بعد أبيه سنة ١٠٦٨هـ/ ١٦٥٧م، وساس البلاد خمسين سنة كاملة مثل جده الأعلى الإمبراطور أكبر المعروف بزندقته وإلحاده. ولكنه فاق جده الأكبر من ناحية الملك وتدبير المملكة، لأن أكبر اعتلى العرش وهو طفل لم يبلغ الحلم، فتولى الأمر أحد أعيان المملكة بضع سنين نائبا عنه، حتى بلغ أشده وأخذ زمام الأمر بيده. أما الإمبراطور الصالح أورنغزيب ـ ابن شاه جهان بن جهانكير بن أكبر ـ فتولى الحكم لما كان ابن أربعين سنة وهو عارف بأساليب السياسة ومكائدها، وقد مارس قيادة الجيوش وولاية المقاطعات النائية المتمردة في عهد أبيه. وبقي أورنغزيب يعالج جميع مهام الحكومة بيده، ويقود الجيوش بنفسه، وينفذ القوانين وهو شيخ جاوز العقد التاسع من عمره، إلى أن وافاه الأجل المحتوم وهو على رأس معركة حاسمة في أقصى الجنوب، بعيدا عن العاصمة بألف ميل أو أكثر. ولايزال قبره في أورنغ آباد ـ وهي مدينة في جنوب الهند ـ شاهدا على ذلك. فهو يعد آية في الدهاء والشجاعة وقوة العزيمة وسداد الرأي.

إلا أن الذي يهمنا من سيرته في هذا المقام تلك الخصائص الجليلة التي يمكن أن تعد مفخرة لكبار ملوك العالم، ويعنينا من أعماله ومواقفه الجليلة في هذه العجالة موقفه العظيم الحاسم الذي وقفه إزاء البدع والمنكرات والضلالات التي نجم قرنها في عهد الملك أكبر وبقيت آثارها بادية وبقاياها ظاهرة في المجتمع مدة من الزمان، إلى جانب ما بذله المصلحون من أمثال السيد المجدد السرهندي من الجهود الموفقة والمساعي المشكورة للقضاء عليها واستئصال شأفتها. ومن هنا تعرف السبب الذي حمل جمهرة مؤرخي الأفرنج

وكُتّاب الهندوس على مدح الإمبراطور الزنديق أكبر وإطرائه والثناء عليه والطعن في الإمبراطور المسلم العادل الورع أورنغزيب وإطالة لسان القدح في سيرته وأعماله الجليلة الباهرة.

فمن حسناته ومآثره أنه ألغى جميع البدع والمنكرات التي روجها أكبر، فنقضها الواحدة بعد الأخرى، وإليك بيان بعضها:

١- ألغى التقويم الإلهي الذي كان أكبر قد استبدله بالتقويم الهجري الإسلامي.

٢- أذن للمغنين في أول عهده بالملك أن يحضروا البلاط الملكي بشرط أن يمتنعوا عن الرقص والغناء، وبعد قليل حظر عليهم ذلك أيضًا.

٣- منع الاحتفال بعيد رأس السنة الشمسية الذي كان يقيمه أكبر ويحتفل به، إرضاء للمجوس وتقليدا لشعائرهم.

٤- كان من عادة بعض الملوك من آل تيمور أن يظهروا للناس من شرفات قصورهم كل صباح، لتتمتع الرعية بالنظر إلى وجهوههم، كما هي عادة الملوك الوثنيين مع رعاياهم، إذ كانوا يعبدون ملوكهم ويقدسونهم كالآلهة، فقطع أورنغزيب هذه العادة.

٥- وكان من ديدنهم أن يزنوا أجسادهم بالذهب والجواهر الغالية ويتصدقوا بها على الفقراء، زعما منهم أن هذه الصنيعة تقيهم نوائب الدهر وموبقاته، فألغاها الملك الزاهد.

٦- عزل المنجمين عن وظائفهم وألغى هذا المنصب بتاتا، وكان مما جرت عليه عادة من سبقه من الملوك أن يكون لهم منجمون يرجعون إليهم في النوائب ويستشيرونهم إذا ألم بهم أمر أو حل بهم مكروه.

٧- وقد سبق أن ذكرنا أن الإمبراطور أكبر كان قد أباح بيع الخمر علنًا، ثم نسخه ابنه جهانكير لكنه لم ينجح لأنه كان هو نفسه مدمنا للخمر سكيرا، ولذلك أباح للناس أن يتعاطوها في بيوتهم، أما ابنه شاه جهان فقد تشدد في هذا الأمر حتى نجح في منع المسكرات إلى حد ما، إلا أنه استثنى النصارى من هذا القانون وأباح لهم أن يشربوا الخمر كيفما شاءوا. ولما اعتلى أورنغزيب عرش الملك وأخذ زمام الأمر بيده، صرف همته إلى هذا الأمر بوجه خاص، واعتزم أن يجتث شجرة الشر هذه من جذورها. فأفرد لذلك إدارة خاصة وعين لها موظفين وعمالا يراقبون مرتكبيها رقابة شديدة ويعاقبونهم عقابا صارما. وهذه مأثرة من مآثر الملك العادل لا يقدر على جحودها حتى ألد أعدائه من الهندوس والأفرنج.

٨- منع القمار منعا باتا.

٩- أصدر الأمر الملكي للبغايا والراقصات بأن يتزوجن أو أن يخرجن من حدود المملكة.

هذا غيض من فيض وقليل من كثير أعماله الجليلة التي أداها في سبيل إعلاء كلمة الله ورفع شأنها في البلاد الهندية. وفي هذا القدر كفاية للطالب المستبصر، ومن شاء التفصيل، فليراجع كتابنا المفصل في هذا الموضوع.

نظام الحكم في عصره

أما نظام الحكم في عصره فقد بقى على ما كان عليه في عهود آبائه، شخصيا استبداديا، فالأمر والنهي كله كان بيد الإمبراطور الذي ورث الملك عن أبيه وهو عازم على أن يرثه عنه ابنه من بعده، رغم أن هذا الملك الشخصي الاستبدادي ليس من الإسلام في شيء.

وأحسن ما في سيرة هذا الملك الزاهد العادل أنه بقى مستمسكا بعروة الشريعة الوثقى، منفذا لأحكامها وأوامرها، زاهدا في معيشته الذاتية، متورعا في خلقه وأعماله مع حرصه، في الوقت نفسه، على نظام الحكم الاستبدادي الوراثي الذي ورثه عن آبائه. فكأنه أراد أن يجمع بين طرفي النقيض من حيث يشعر أو لا يشعر، لأن الإسلام لا يعترف للأمير أو الخليفة بالسلطان المطلق، ولا يسمح بذلك في حال من الأحوال. وكانت الممالك الإسلامية في الهند كلها استبدادية وراثية لا تمت إلى نظام الحكم الإسلامي بصلة، وكان ينقص ضررها ويزيد باختلاف الملوك ونزعاتهم وميولهم الشخصية. فإذا اعتلى عرش الملك رجل صالح مثل فيروز تغلق أو أورنغزيب ازدهرت سوق العدل وجرى العمل بقانون الشريعة وظهرت كلمة الحق، وإذا استبد بالأمر طاغية مثل أكبر وأراد أن يكيد للإسلام ويتربص به الدوائر عمت الظلمة وانتشر الضلال ونجم قرن الإلحاد والزندقة.

****